لينزلوا الى الشارع !

قالوا عن مجلة أجازوها : هذه المجلة بعيدة عن السياسة اطلاقاً، واجازوها على هذا الاساس .

والصراحة اني لا ارى لهذا التضييق والتحديد معنى الا ان يكون في فكر اصحاب الاجازات ابعاد نشرة من نشرات الناس عن السياسات الضيقة القصيرة النفس ، الرائجة اسواقها في بلادنا العربية ، واقصاؤها عن الالوان الباهتة التي صبغ السياسة بها اولئك المتطفلون على السياسة والمرتزقون منها على حساب معرفة الشعوب العربية ووعيها .

والا اي سخافة تلك التي تزعم ان الادب — اجل الادب بمختلف وجوهه ومعانيه — ينفصل عن السياسة اطلاقاً ؟ واي سخافة تلك التي تحاول ان تقيم حدوداً بين شؤون المجتمع والسياسة ، وفواصل بين الادب والسياسة ، وامامنا تاريخ الثورة الفرنسية يشهد بان الادب نشر وقود الثورة ، وان الادباء اضرموه ؟

الحق أن من اسباب هذا الجبل المخيف في الجماعات العربية ومن مشجعات هذا اللعب السياسي بالجمهور العربي في داخل البلاد ومن خارجها ، انصراف الادباء العرب والنشرات الادبية عن تتبع السياسة واكتفاءهم واكتفاءها من العمل ومن اعداد الرسالة الادبية بين الناس ، بدراسات ومناقشات تدور على القديم ، وتكون احياناً مجرد تمرين للفكر ، واحياناً اخرى مجرد جدل يشبه جدل البيزنطيين الطيبين في : هل الملائكة ذكور ام اناث ، يوم كان العثمانيون يقرعون ابواب اثينا !

يوم انعقد في بيت مري اخيراً مؤتمر الادباء او اسبوع ادباء العرب ، سمعنا ادباء كباراً يطلبون ان يبقى الادبـاء محصورين في الادب — الفن لان الادب السياسي صناعة الصحافيين !

هل رأيت قصراً في النظر بمثل هذا الوضوح ، وهرباً من ميدان الكفاح بمثل هذه الشجاعة ؟

هناك كلمة تقفز الى ذهني كلما اتفق فراع دفائق انظر بها نظرة عجلى في مقال ادبي : لم تبلغ الجماعات العربية ، بعد ، من النهوض والفهم والاستقرار مرحلة تسمح لها بكل هذا الترف : الادب — الفن . فنحن في مراحل تطور يأخذ بعضها برقاب بعض ، ونحن في ايام محنة توجب علينا حشد قوانا الفكرية لاجتياز هذه المحنة . نحن في سباق مع زمن سبقنا مسافة جيلين بالاقل . ولا بد لنا اذا اردنا حقاً اختصار الطريق واستدراك تخلفنا عن العالم ، من ان نستعين بكل بارقة علم وكل عطية فهم وفكر في صفوفنا لنجعلها طاقة في خضم جماعاتنا الجاهلة ، وهي كثرتنا وسوادنا الاعظم، تفجر طاقات اصيلة فينا قد تكدس عليها غبار الجهل والتضليل السياسي والاجتماعي حتى كاد يقتلها او كاد يوردها موارد التطرف واليأس .

اجل ان جماعات كالجماعات العربية لم تشبع بعد لقمتها ولا اطمأنت الى غدها ولا ضمنت غد ذويها ، كثير عليها واجرام بسلامتها ان تبيح لنفسها التمتع بترف الادب للفن حين تحتاج الى اصغر ذرة من ذرات العلم والمعرفة لتتوسل بها الى غد افضل من يومها فتبتعد بها عن مستغلي الجهل والجوع والمرض في عالمنا وفي العوالم اجمع .

وان جماعة من خيرة اهل العلم والفكر والقلم لا تعرف اين تنشر نور المعرفة ، والظلمات عند قدميها وعلى جانبيها ومن حواليها ، لمذنبة تستحق التقريع والتنبيه . انها عارفة اين الجهل فلا تهاجمه، ومدركة اين الخطر فلا تنازله ، ترى لصوص السياسات وانصاف الاميين يلعبون بالجماهير بأسهل مما نلعب بأملامنا ، ولكنها لا تتحرك ، تاركة القافلة سادرة في ضلالها واللصوص ماضين في نهبهم .

لقد غسل الادباء ايديهم من دم المعرفة يهراق كل يوم امام اعينهم . قالوا : هو الترف وهو الترفع عن السفاسف وهو اختيار الفن من دون واجبات الحياة !.. وتلك هزيمة .

قالوا : دعونا في سماواتنا نحلق مع الخيال ونعيش فوق البشر ! وتلك هزيمة.

وقالوا : ليس هذا شأننا ولا هذه صناعتنا ! وتلك هزيمة ثالثة .

انما المطلوب من ادباء العرب ان يعيشوا على الارض مع الناس لينهضوا هم والناس من الحضيض .

المطلوب منهم ان يدخلوا حياة الفرد والجماعة من ابسط ابوابها وان يخاطبوا الناس من حيث يفهمون وان يجعلوا رسالتهم رسالة توجيه وتثقيف للجهلاء قبل المتعلمين وللحشنين قبل المثقفين .

ويخطر ببالي هنا مرض عضال اصيب به الادباء ، اعني مرض المحاضرات. في بيروت تلقى كل شتاء سبعون محاضرة عربية او يزيد . ومثلها في دمشق وحلب ، واكثر منها في بغداد والقاهرة والاسكندرية . فوالله ما رأيت محاضراً ، ذات مرة ،خطر له ان يسأل نفسه هذا السؤال البسيط ، ترى من يسمعني ومن يفهمني وكم مواطناً علمت وكم فكراً انرت وكم ضالاً هديت ؟

ووالله ما سمعت ذات يوم محاضراً عربياً خطر له ان يجمع جمهوراً من الاميين وانصاف الاميين لمخاطبهم بلغتهم في شأن من شؤون يومهم ومشكل من مشاكل ساعتهم ، ويحاول الوصول الى اعماق فهمهم فيباسطهم ويرشدهم ويعطيهم شيئاً من ذات علمه ومعرفته .

وقد يكون من الحق ان تقول ان في الادباء من لا يشد من تسطير افكاره وفلسفته او نشر معارفه الا المباهاة في الناس وفي اقرانه . وان يكن ذلك تشويهاً لرسالة الاديب والادب في الشعوب المتحضرة ، فان في احوالنا وفي بحران جهالاتنا وحاجتنا الى المعرفة حاجتنا الى الخبز والماء ، ابشع ضروب الطيش والبطر .

وبعد ، لا شماتة ، قد رد الجمهور الى الادباء الكيل كيلين فابتعد عنهم بقدر ما ابتعدوا عنه ووقعت صناعة الادب في كساد من اشد ما عرف حتى اليوم .

لينزل الادباء الى الشارع كي يطردوا اللصوص من الهياكل ، ويحلوا محل حملة العصي وزبانية العنف من قادة الجماهير ، وحملة الاقلام المرتحلة الرخيصة من سائقيها .

اجل فلينزل ادباء العرب الى الشارع .

باسيل دقاق